Dimensions of the Eighth French Campaign on Tunisia and its Results 669 AH / 1270 AD

Dr. Wafaa Sarem*
Dr. Bashar Abbas**
Mazen Rajab***

(Received 7 / 7 / 2019. Accepted 22 / 10 / 2019)

□ ABSTRACT □

The French campaigns led by the Western European to the Arab world, according to the prevailing belief is to rid Jerusalem of Muslims, but the underlying and hidden behind it is to achieve a range of political and economic interests serve Europe and make it in the forefront, However, it did not prevent Louis IX from carrying out his campaign. He held many alliances and agreements in which he wanted to achieve his projects and objectives in Africa. The campaign of Louis IX on Egypt and then on Tunisia was a means, not an end. , Means of access To the Holy Land and to control it, this is the belief of Louis IX, who went ahead in processing the requirements of the campaign of several equipment and headed its own leadership, when he got the full support of the religious authority and political support by the kings of Europe and especially from his brother Charles Anju, as a result of those alliances that thought That it would achieve what it wanted, given the political situation of the unrest and revolutions that had erupted in Tunisia from time to time, has created the conditions appropriate for the march to Tunisia and control, but the quest that Lewis wanted to expand and control of Tunisia failed and did not achieve its objectives due to circumstances The Beard that hit him, and shortly after the story ended adventurer who wanted to underscore the story of his life and honors his memory to achieve its objectives on the expansion of religious and secular levels.

Keywords: Louis IX - Carthage - Mustansir - Charles Anju.

* **Associate Professor - Department of History- Faculty of Arts and Humanities-University Tishreen-Lattakia- Syria**

** **Assistant Professor - Department of History -Faculty of Arts and Humanities- University Tishreen-Lattakia- Syria**

*** **Postgraduate student Master- specialization Arabs and Islam- University Tishreen- Lattakia-Syria**

أبعاد الحملة الفرنجية الثامنة على تونس ونتائجها
669هـ / 1270م

د. وفاء صارم *
د. بشار عباس **
مازن الرجب ***

(تاريخ الإيداع 7 / 7 / 2019. قبل للنشر في 22 / 10 / 2019)

□ ملخّص □

إنَّ الحملات الفرنجية التي قادها الغرب الأوربي إلى الوطن العربي، جاءت حسب المعتقد السائد وهو تخليص بيت المقدس من المسلمين، لكن السبب الجوهري والخفي وراء ذلك هو تحقيق مجموعة من المصالح السياسية والاقتصادية تخدم أوربا وتجعلها في المقدمة، ومهما اختلفت أبعاد الحملة الفرنجية ونتائجها على تونس إلا أن ذلك لم يمنع Louis IX من القيام بحملته عليها، حيث قام بعقد العديد من التحالفات والاتفاقيات التي أراد من خلالها تحقيق مشاريعه وأهدافه في إفريقيا، فحملة Louis IX على مصر ومن ثم على تونس كانت وسيلة وليست غاية، وسيلة للوصول إلى الديار المقدسة والسيطرة عليها، هذا بمعتقد Louis IX الذي مضى قدماً في تجهيز مستلزمات الحملة من عدة وعتاد وترأس بنفسه قيادتها وذلك عندما حصل على الدعم الكامل من السلطة الدينية ودعم سياسي من قبل ملوك أوربا وبشكل خاص من أخيه Charles Anju، نتيجة لتلك التحالفات التي ظن بأنه سيحقق ما كان يصبو إليه، نظراً للأوضاع السياسية المتمثلة بالاضطرابات والثورات التي كانت قد اندلعت في تونس بين الحين والآخر، قد هيأت الظروف المناسبة للمسير إلى تونس والسيطرة عليها، لكن المسعى الذي أراد لويس من خلاله التوسع والسيطرة على تونس فشل ولم يحقق أهدافه نتيجة الظروف الصحية التي أصابته، وبعد فترة وجيزة انتهت قصة المغامر الذي أراد أن يسطّر قصة حياته ويخلّد ذكراه بتحقيق أهدافه التوسعية على المستويين الديني والدنيوي.

الكلمات المفتاحية: Louis IX – قرطاجة – المستنصر – Charles Anju.

* **أستاذ مساعد – قسم التاريخ– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية**
** **مدرس – قسم التاريخ– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية**
*** **طالب دراسات عليا ماجستير –اختصاص عرب وإسلام– كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين– اللاذقية– سورية**

مقدمة :

تعد الحروب الفرنجية من أبرز حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، من حيث أسبابها ونتائجها ومدى تأثيرها على الوطن العربي ، وما آلت إليه من تغير في ميزان القوى حيث تبوأت الحركة الفرنجية مكانة فريدة في هذا الصراع نظرا لدوافعها العديدة المتشابكة ونتائجها التي مست مختلف نواحي الحياة البشرية .

إن الحملات الفرنجية التي قادها الغرب الأوربي إلى الوطن العربي، جاءت حسب المعتقد السائد هو تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، حيث تمّ التخطيط والتجهيز لهذه الحملات وتلقي الدعم من السلطة الدينية والسياسية وعلى الرغم من اتجاه معظم قوى الحركة الفرنجية إلى المشرق ، الا ان ذلك لم يمنع من فكرة احتلال افريقيا ماثلة في افكار الفرنجين ذلك عندما فشل Louis IX في حملته على مصر سنة 647هـ / 1249م حيث وقع في الأسر وأقسم بأن لا يعود ثانية إليها ، إلا أنه أصر بالقيام بحملة فرنجية جديدة، وهي الحملة الفرنجية الثامنة على تونس سنة 669هـ /1270م وأراد Louis IX من حملته على تونس أن يمجّد ذكراه ويجعل من شخصه قديساً منقذاً للمسيحية مخلصاً لها، فاذا كان هانيبال قد قال (كل الطرق تؤدي إلى روما) جعلت Louis IX يصر على حملته إلى تونس كل الطرق تؤدي إليها.

ولاستكمال توضيح الصورة تجدر الإشارة إلى التغيرات التي شهدها العالم الإسلامي ، فقد انهارت دولة الموحدين سنة 668هـ /1269م في المغرب الإسلامي بعد فترة من الضعف والاعتلال ، كل تلك الظروف طبعت الحركة الفرنجية في هذا الدور بسمة خاصة مميزة ، و اتخذت صفة الغارات السريعة جاعلة من القول المأثور (اضرب وهرب) شعارا لها، واتخذت أسلوبا سلميا آخر وهي حركة التبشير بالمسيحية كما أرادها Louis IX في تونس خاصة والمغرب العربي عامة.

على الرغم من المعارضة اتجاه Louis IX من الغرب الاوربي حول أهداف وأبعاد هذه الحملة ، إلا أنه أصر على التجهيز لها والذهاب حتى لو كان وحيداً لمضى في حملته إلى تونس بعد فشله في حملته السابعة.

أهمية البحث وأهدافه

إن الجزء الأكبر من جهود الباحثين في الحركة الفرنجية قد انصرف إلى معالجتها في ميدانها الرئيس في الشام ومصر، بحيث طغى ذلك على ميادين أخرى هامة لنشاط هذه الحركة عانت منها وذاقت من ويلات حروبها الكثير ، وتعد افريقيا بمدلولها التاريخي إحدى هذه الميادين .

تتجلى أهمية البحث من خلال النتائج التي آلت إليها الحملة الفرنجية السابعة على مصر 647هـ / 1249م ووقوع Louis IX في الأسر ، لذلك قرر أن يمضي قدماً بحملته الثامنة على تونس لتحقيق مشاريعه التوسعية في المنطقة ، ومهما اختلفت الأسباب والدوافع ما بين سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية إذ أن Louis IX أراد تأسيس قاعدة ثابتة في تونس بحيث يكتمل فيها المثلث الفرنجي (الشام ـ قبرص ـ افريقية)المواجه لدولة المماليك ، فهدف الحملة هو تدشين طريق جديد إلى الديار المقدسة تكون تونس نقطة الانطلاق منها.

على الرغم من أهمية جبهة افريقية في تاريخ الحركة الفرنجية وضراوة الصراع الإسلامي الفرنجي فيها ، فإنها لم تلق العناية الكافية من الباحثين .

منهج البحث :

إنّ أهمية موقع تونس الاستراتيجي جعل منها محط أنظار Louis IX وأطماعه، حيث لاقت اهتماماً كبيراً من المؤرخين والباحثين وخاصةً ابن خلدون.

العديد من الدراسات التاريخية التي تطرقت لبحث الحملات الفرنجية على الوطن العربي تم التركيز فيها على الحملة الأولى والثانية ، أما بقية الحملات فلم تلقَ أهمية كمثيلاتها ومنها الحملة الفرنجية الثامنة على تونس 669هـ / 1270م إضافةً الى قلة المعلومات حول أبعاد الحملة وأهدافها .

إجراءات لويس التاسع بعد الحملة الفرنجية السابعة 647هـ / 1249م:

يعد فشل حملة Louis IX على مصر سنة 647هـ / 1249م نقطة تحول في اتجاه الحركة الفرنجية ، فقد كان ذلك الفشل سبباً مباشراً وهاماً في زعزعة أركان الكيان الفرنجي في المشرق، ذلك أن هزيمة Louis IX في مصر لم يترتب عليها حرمان ذلك الكيان من النجدة الغربية التي ظلّ يمنّي نفسه بها لتدعيم وجوده في المشرق فحسب بل ذهب ضحيتها أيضاً عدد كبير من فرسان الشام وقبرص ومحاربي الداوية والاسبتارية [1] مما جعل الفرنجيين في الشام بالذات يعيشون تحت رحمة ما تتمخض عنه الظروف والحوادث.[2]

كان Louis IX من أكثر الفرنجيين إحساساً بفداحة هذا الخطب لذلك رأى أنه لا بدّ من القيام بعمل ما يحقق به مكسباً ولو بسيطاً يعيد إليه ماء وجهه حيث لم يتجه إلى بلاده مباشرةً بعد إطلاق سراحه من الأسر إثر معاهدة الصلح التي عقدها مع المماليك 648 هـ / 1250م [3] بل فضّل الاتجاه إلى عكا لتدبّر أمره أما العوامل التي دفعته إلى ذلك منها ضرورة قيامه بأي عمل من شأنه أن يردّ إليه من اعتبار ثم ليطمئن على تخليص رجاله وجنده الذين ظلوا أسرى في مصر والذين بلغ عددهم حوالي أربعة عشر ألف أسير ثم نشوب نار الفتنة بين المماليك حكّام مصر الجدد وأمراء البيت الأيوبي في الشام مما أعطاه الأمل في التدخل لتحقيق مكاسب على حساب الفريقين المتنازعين فضلاً عن تردي أوضاع الفرنجيين في بلاد الشام وشعوره بضرورة العمل على تدعيم كيانهم الآيل للانهيار ثم الأمل الذي كان يعلقه على الاستفادة من قوة التتار الجبّارة التي بدأت تكتسح العالم الإسلامي من المشرق لكن ما أن أطلق سراحه وغادر دمياط 648 هـ / 1250م حتى اتجه إلى عكا حيث وصلها في سنة 648 هـ / 1250م. [4]

خلال السنوات الأربعة التي قضاها Louis IX في الشام 649 / 653 هـ – 1250 / 1254م بذل جهوداً مضنية في سبيل تحقيق أهدافه الفرنجية وقد سارت سياسته خلال تلك الفترة في أربع اتجاهات تلتقي كلها لتحقيق الهدف المنشود وهي الاستفادة من الصراع المملوكي الأيوبي وكسب دعم القوى الفرنجية الأوربية المادي والمعنوي في تشكيل حملة فرنجية تلحق به في المشرق والاحتفاظ بالكيان الفرنجي في بلاد الشام وأخيراً السعي لكسب التتار إلى الجانب الفرنجي وإقامة حلف معهم ضد المسلمين لكن هذه المساعي التي أرادها لويس فشلت ولم تحقق أهدافه منها.[5]

---

(1) الاسبتارية: يعدّ وليم شاتونيف مقدم الاسبتارية 641– 656 هـ / 1243– 1258م فقد كانت منظمة عسكرياً تحارب إلى جانب Louis IX وعملت على تأمين حماية الفرنجيين وازدهرت إقطاعاتها وانتشرت أملاكها في عكا وأنطاكية وطرابلس والفكرة الأساسية للاستبارية قامت على محاربة المسلمين والتعاضد مع Louis IX للدفاع عن الفرنجيين بقوة السلاح، أما الداوية لم تكن أقل شأناً من الاسبتارية فكانت الساعد الأيمن لLouis IX ومن قادتهم وليم سوناك وريناند دي فيشيه حيث عززت الداوية الوجود الفرنجي واستمرت عنصراً مفيداً لأنها نذرت نفسها لخدمة المشروع الفرنجي. الدكيفي (خالد حسين): لويس التاسع والنشاط الفرنسي الصليبي من معركة المنصورة حتى وفاته 648 – 669هـ / 1250 – 1270م، رسالة أُعِدَّت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام بإشراف أ. د وفاء جوني، دمشق، 2011م، ص 108– 112.

(2) عاشور (سعيد): الحركة الفرنجية – صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، ج2، 1972م، ص 1084.

(3) يوسف (جوزيف نسيم): Louis IX في الشرق الأوسط، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، ط 2، 1959م، ص 70.

(4) عاشور: ج 2، ص 1084.

(5) يوسف: ص 156– 157.

عندما فشلت جهود Louis IX في المشرق خابت آماله أيضاً في تشكيل حملة فرنجية من الغرب الأوربي تلحق به إلى الشام قبل عودته إلى بلاده في سنة 653هـ / 1254م.[1]

فقد كانت أوربا الغربية مشغولة بالصراع الذي كانت تدور رحاه بين البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة وكان اهتمام البابوية بالقضاء على الإمبراطور فردريك الثاني وخلفائه من بعده أكبر بكثير من اهتمامها بدعم الملك الفرنسي في الشرق أما ملك إنكلترا الذي كان قد أظهر رغبته في الاشتراك في الحملة المرتقبة فقد دلت الحوادث الآتية لإعلانه عن ذلك الاشتراك على أنه لم يكن جاداً في الأمر وأنه اتخذ من ذلك الإعلان وسيلة لابتزاز الأموال من شعبه إرضاءً لجشعه وكان العون الوحيد الذي تلقاه Louis IX من ملك إنكلترا هو موافقته على مدّ أجل الهدنة المعقودة بينهما لحين انتهاء الحملة وعودة Louis IX إلى بلاده [2].

أما الإمبراطور فردريك الثاني فلم يقدّم للملك الفرنسي أي مساعدة تذكر حتى أنّ جوانفيل يتهم رسله الذين أرسلهم إلى Louis IX بانهم ما قدموا إلى المشرق إلا لإثارة المزيد من المتاعب في وجه الملك الفرنسي [3].

ولم يحالف الحظ أيضاً فرناندو الثالث ملك قشتالة في مساعدة Louis IX بسبب وفاته سنة 648هـ / 1250م حيث قضى على أمل الملك الفرنسي Louis IX في تلك المساعدة التي أمل بها [4].

لذلك وبعد أن رأى Louis IX فشل جهوده وتبخر أحلامه وطموحاته أدرك أن إقامته في المشرق لم تعد مجدية وخاصة بعد أن وصله نبأ وفاة أمه بلانش (بلانكا) وحلّ محلها إخوته في الحكم الذين كانوا ضعافاً في حكم فرنسا الأمر الذي دفعه للتفكير جدياً في العودة إلى بلاده.

وأخيراً بعد تداول الرأي مع أصحابه ومستشاريه وكبار فرنجيي الشام قرر العودة إلى فرنسا حيث أبقى حامية صغيرة مكونة من مئة فارس بقيادة جيوفري دي سارجين لذلك يمكن اعتبار أن رحيله عن عكا كان نهاية مرحلة من مراحل جهوده الفرنجية وبداية لمرحلة جديدة [5].

في سنة 658 هـ / 1260م اعتلى الظاهر بيبرس السلطنة المملوكية الذي أعاد وحدة مصر والشام تحت سلطانه وأخذ يسدد ضرباته القوية لمعاقل الفرنجيين وحصونهم حتى أخذت تتهاوى في يده .

كانت هذه الأنباء تتوالى على Louis IX فتقض مضجعه لأنه بحكم اطلاعه الواسع على أحوال المشرق كان يدرك أنه مع نشاط الظاهر بيبرس بدأت تلوح نذر الكارثة على الوجود الفرنجي في بلاد الشام حيث بدأ الظاهر بيبرس تشديد هجماته على الفرنجيين منذ سنة 664هـ / 1265م فقد فتح قيسارية ويافا وعتليت وأرسوف وهاجم عكا بجيش ضخم إلا أنه انسحب منها بعد وصول النجدة إليها مما اضطر بيبرس للعودة إلى مصر [6].

حيال هذا الوضع لم يجد Louis IX بداً من القيام بمحاولة جادّة لإنقاذ فرنجيي بلاد الشام من المصير المحتّم الذي ينتظرهم والرغبة في العودة إلى فرنسا.

---

(1) يوسف: ص 90 – 103 – 114 .

(2) يوسف: ص 103.

(3) جوانفيل (جين): حياة لويس حملاته ورحلاته على مصر والشام، الموسوعة الشامية، تح و تر: سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، ج 35، 1999م، ص 294.

(4) جوانفيل: ص 294.

(5) عاشور: ج2، ص 1104.

(6) سعيد (عاشور): العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، د . ت، ص 60.

مراحل إعداد الحملة الفرنجية الثامنة:

بقي العمل الفرنجي يراود خيال Louis IX وازداد حماساً مع تداعي وانهيار معظم المعاقل الفرنجية تحت وطأة الضربات المملوكية وكان أول من أخذته الحميّة من ملوك أوربا Louis IX فأدرك ضرورة إمداد الكيان الفرنجي [1]، وتناسى العهد الذي قطعه على نفسه للمسلمين بعدم مهاجمة بلادهم إثر إطلاق سراحه منذ سبع عشرة سنة 648هـ / 1249م [2].

المثير للانتباه أن هذه الحملة لم تتجه إلى بلاد الشام أو مصر كما اعتادت الحملات الفرنجية السابقة إنما انطلقت إلى تونس التي تبعد مسافات شاسعة من القدس [3]، واتجاه الوضع المؤلم الذي عاشته مملكة عكا وجّه البابا كليمنت الرابع النداء إلى ملوك أوربا سنة 665هـ / 1267م وحثّهم على إنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين وصوّر لهم أعمال العنف والتدمير التي حلّت بالفرنجيين على أيدي المماليك لكنّ أوربا لم تبدِ ذلك الحماس الكبير لتلك الحملة [4].

السؤال الذي يطرح نفسه : لماذا خفّت رغبة الأوربيين بالاشتراك في الحروب الفرنجية؟

لقد وجدت الشعوب الأوربية أنها بدّدت مواردها الاقتصادية وأموالها في مشروع خاسر ويمكن من خلال تلك الموارد تحسين أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والداخلية بدلاً من هدرها لأنها أدركت أن قضية استعادة القبر المقدس ليست سوى ذريعة من أجل مدّ نفوذ أوربا إلى المشرق العربي الإسلامي ومغربه.

ولم يخفَ على الأوربيين تفاني المسلمين في الدفاع عن أنفسهم وأوطانهم وهذا ما أصابهم بالفتور اتجاه الحروب الفرنجية باستثناء المغامرين من بعض ملوك أوربا أمثال Louis IX.

إثر نداء البابا لملوك أوربا من أجل إنقاذ الكيان الفرنجي سارع Louis IX الذي كان من أكثر المتحمسين لغزو البلاد العربية الإسلامية [5]، حيث عقد اجتماعاً للتخطيط لمشروع حملة فرنجية جديدة سنة 665هـ / 1267م دعا إليه كبار بارونات فرنسا وقد ألقى Louis IX في ذلك الاجتماع خطاباً حماسياً بيّن من خلاله الحالة المأساوية التي آلت إليها أوضاع مملكة عكا، كما دعاهم إلى حمل السلاح لإنقاذ الكيان الفرنجي كما بادر Louis IX بحمل الصليب المقدس [6]، وحذا حذوه أبناؤه الثلاثة وهم فيليب وبيترو ويوحنا الحزين والكثير من النبلاء.

(1) العيني (بدر الدين): الموسوعة الشامية، تح و تر: سهيل زكّار، دمشق، ج 60 ، 2003م، ص 250.

(2) المطوي (محمد): السلطنة الحفصية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م، ص 180.

(3) ابن كثير (إسماعيل): البداية والنهاية، تح: عبد الله التركي، دار عالم الكتب، الرياض، ط2، ج17، 2003م، ص 173.

(4) مونرود (مكسيموس): الحروب المقدّسة في المشرق المدعوّة حرب الصليب، تح: مكسيموس مظلوم، طباعة دير الرهبان الفرنسيسكان، أورشليم، 1865م، ص 346.

(5) جوانفيل: الموسوعة، ج 35، ص 260 – 261.

(6) جوانفيل: الموسوعة، ج 35، ص 260 – 261 ؛ مونرود: مج2، ص 247 – 248.

ما إن انتهى الاجتماع حتى بادر Louis IX بمراسلة ملوك أوربا لحثّهم على المشاركة في الحملة الفرنجية التي ينوي إعدادها فأرسل له البابا كليمنت الرابع مباركاً جهوده، كما وجّه النداء إلى الكنائس الأوربية من أجل تسخير ثرواتها لمساعدة Louis IX في إعداد الحملة، فأرسل إلى Edwar Henry الثالث ملك إنكلترا فسارع إدوار في المجيء إلى فرنسا ومرافقة لويس في حملته على تونس وبينما كانت التنسيقات جاريةً في أوربا على قدم وساق من أجل إعداد مستلزمات الحملة أرسل الفرنجيون إلى البابا وفداً طالبوه في الإسراع بإنقاذ مملكة عكا [1].

أصبحت الحملة الفرنجية الثامنة على أهبة الاستعداد ولكن المثير للانتباه أنها لم تقصد مملكة عكا إنما قررت المسير نحو شمال إفريقيا وهذه أول حملة فرنجية تنطلق إلى تونس وبفضل Louis IX أعدّت أوربا حملة فرنجية ثامنة معظم المشاركين فيها من الفرنسيين [2]، حيث قرّر Louis IX الانطلاق نحو تونس تحديداً بإيحاء من أخيه Charles Anju، أملاً بفرض الهيمنة الفرنسية على إفريقيا ومنها الطريق إلى بيت المقدس.

الهدف الأول لهذه الحملة هو استعماري، أما الهدف الثاني فهو ديني، فقد غدت تونس في نظر Louis IX هي الطريق المؤدي إلى بيت المقدس [3].

أوضاع تونس قبيل قدوم الحملة الفرنجية الثامنة:

حكم بنو حفص تونس منذ سنة 603هـ / 1207م إثر ضعف الموحدين في المغرب العربي وعرفوا بالحفصيين نسبةً إلى مؤسس الأسرة الحفصية عمر أبو حفص بن يحيى الهنتاني من قبيلة المصامدة أكبر قبائل المغرب العربي وينسبون إلى قريش من بني عدي بن كعب رهط عمر بن الخطاب رضي الله عنه [4].

أول من لُقِّب من سلاطين بني حفص بأمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الذي لُقِّب بالمستنصر بالله [5] بعد أن استلم حكم تونس سنة 647هـ / 1249م وقد امتدت حدود دولته من طرابلس الغرب شرقاً حتى أقصى بجابة غرباً [6]، وامتدت جنوباً إلى صحراء ورفلة الواقعة في الجزائر [7].

بعد أن تبيّن امتداد تونس لا بدّ من الوقوف على أوضاعها قبل مهاجمتها من قبل الحملة الفرنجية والتركيز على الأوضاع التي كانت سبباً أساسياً في جذب الفرنجيين نحو تونس وهي:

---

(1) الكناني (مصطفى): حملة Louis IX الصليبية على تونس، دار المعارف، الإسكندرية، د . ت، ص 141.

(2) فابري (فيلكس): جولات الراهب الدمينيكاني فيلكس فابري ورحلاته، الموسوعة الشامية، تح وتر: سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، ج38، 2003م، ص 1173.

(3) رنسيمان (ستيفن): تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط2، ج3، 1980م، ص 501.

(4) الزركشي (محمد): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، الدار التونسية، ط1، 1872م، ص 149.

(5) المستنصر الحفصي: هو سلطان تونس محمد بن أبي زكريا يُكنّى بأبي عبد الله، بويع سنة 647هـ / 1249م، اهتم بالعمران والأدب والشعر، وساد عهده البذخ والترف، توفى سنة 675هـ / 1276م. الصفدي (خليل): الوافي بالوفيات، تح: محمد محمود وإبراهيم سليمان، دار فرانز شتاينر، فيسبادن، ط2، ج 5، 1970م، ص 202 – 203.

(6) بجابه: مدينة عظيمة تقع شرقي الجزائر حيث تمتد على ضفة البحر وتتكون من جرف صخري شاهق، يعمل أهلها بالتجارة والملاحة. الحموي (ياقوت): معجم البلدان، تح: فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، د . ت، ص 403.

(7) ابن الشمّاع (أبو العباس أحمد): الأدلة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تح: الظاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، طرابلس الغرب، 1984م، ص 60 – 68.

أولاً: الأسباب غير المباشرة:

أ- حدث أن اختلف اللحياني [1] مع تجّار فرنسيين حيث أقرضوه مبلغ قدره ثلاثمئة دينار وعندما احتكموا إلى السلطان التونسي المستنصر بالله حكم لصالح عمه اللحياني فانطلق التجّار الفرنسيون وشكوا المستنصر للملك الفرنسي [2].

ب- كان المستنصر بالله جالساً مع رجاله ذات مرة فجرى ذكر Louis IX فأشار المستنصر إلى رجاله أن Louis IX هو طاغية قد هاجم مصر ولكنه هُزِم ووقع أسيراً بأيدي المصريين ثم أطلقوا سراحه فعلم Louis IX أن المستنصر يتهمه بأنه طاغية [3].

ت- وصول شائعات لمسامع Louis IX أن المستنصر راغب بالتنصر ربما عن طريق الراهب الفرنسي ريموند مارتن [4]، الذي كان على علاقة حسنة مع Louis IX والمستنصر.

ث- تشجيع Charles Anju ملك الصقليتين أخاه Louis IX على غزو تونس والاستيلاء عليها ثم متابعة المسير شرقاً للسيطرة على مصر وبلاد الشام [5]، ويُلاحظ أن Charles Anju كان طامعاً في مدّ نفوذه على إفريقيا من خلال تونس حيث الأراضي الزراعية الخصبة وبخاصة زراعة القمح فضلاً عن امتلاكها أعداداً كبيرة من قطعان الأبقار والأغنام [6].

أظهر Charles Anju وأخوه Louis IX طموحاً في الاستفادة من قوات الحملة الفرنجية في السيطرة على إفريقيا، ثم متابعة المسير نحو بيت المقدس وهذا دليل واضح على أن Louis IX أولى مشروع السيطرة على إفريقيا جهداً أكبر من الاستيلاء على بيت المقدس وإلا لما اتجه إلى تونس ليبدد قواته فيها.

(1) اللحياني : هو محمد الحفصي عم المستنصر، أخذ للمستنصر البيعة من الناس إثر وفاة يحيى والد المستنصر سنة 647هـ / 1249م، لكن اللحياني تغير فيما بعد على ابن أخيه. مقديش (محمود): نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تح: علي زواوي ومحمود محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، مج1، 1988م، ص551 – 552.

(2) ابن خلدون (أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الشعب، القاهرة، ج 6، 1971م، ص 426.

(3) السرّاج (محمد): الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح: محمد الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، مج2، 1984م، ص 152.

(4) ريموند مارتن: أحد الرهبان الفرنسيين الناشطين في نشر الديانة المسيحية في تونس، كما أنه تولّى تدريس الرهبان فيها وقد ارتبط مع المستنصر بعلاقة صداقة وبالوقت نفسه كان على علاقة وثيقة مع Louis IX. حسين (ممدوح): الحروب الصليبية في شمال إفريقيا، دار عمّار، عمّان، ط1، 1998م، ص 273.

(5) فابري: الموسوعة، ج38، ص 1173.

(6) الفاسي (الحسن): وصف إفريقيا، تر. محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م، ص 62.

ثانياً: الأسباب المباشرة:

أ- تمرّد عمّي المستنصر: ما إن اعتلى المستنصر بالله عرش تونس حتى تآمر عليه عمه إسحاق أبو إبراهيم المعروف بالمجدور بسبب إصابته بمرض الجدري، وأخوه محمد اللحياني وذلك لطول لحيته ودبر إبراهيم المجدور مؤامرة أدت لمبايعة محمد اللحياني بالسلطنة بدلاً من المستنصر سنة / 648 هـ - 1250م/ [1]، ولم يكن اللحياني راغباً بالسيادة وإنما إبراهيم المجدور ألحّ عليه ورغّبه بالسلطنة بل وورّطه في ذلك، وعندما علم المستنصر بالله بما جرى تظاهر بالتقرب من عمّيه وأظهر لهما الرغبة في الصلح، وبالفعل استدرج المجدور واللحياني وقتلهما [2].

ب- حركة أبو إسحاق إبراهيم: انتهى المستنصر من اللحياني والمجدور فظهر أخوه إبراهيم أبو إسحاق على ساحة المعارضة السياسية سنة 651هـ / 1253م حيث أثار الاضطرابات والقلاقل في البلاد بحجة سوء أخلاق أخيه المستنصر فكانت أخبار أخيه إبراهيم تصل إلى المستنصر فأمر بمراقبة تحركاته وما إن شعر إبراهيم أنه تحت المراقبة حتى هرب إلى قابس [3]، ولقي تأييداً كبيراً / ***واجتمعت عليه الأعراب من كل أوب*** / [4]، وكان رد المستنصر أن ألقى القبض على أبناء إبراهيم وأودعهم في السجن فاضطر إبراهيم لتهدئة أوضاع الأعراب خوفاً على أبنائه من المستنصر ثم التجأ إلى الأندلس وأقام في غرناطة [5]، حيث أخذ يتحين الفرصة المناسبة للعودة إلى تونس[6].

ت- ثورات القبائل: لم تهدأ حالة التوتر بين المستنصر والقبائل التونسية حتى تثور من جديد [7]، وذلك بسبب الضرائب الباهظة التي فرضها المستنصر على الإقطاعات التي كانت بيد شيوخ القبائل، مما أدى لإثارة الاضطرابات من قبائل البدو [8]، وقد خرج المستنصر بالله سنة 664هـ / 1265م على رأس جيش وهاجم قبيلة الدواودة، حيث / ***ضُربت أعناقهم ونُصبت أشلاؤهم*** / [9]. أما قبيلة زناتة التونسية المعارضة للمستنصر فقد حرّض القبائل الموالية له ضدها فكُسِرت شوكتها وبذلك انتهج المستنصر سياسة تأليب القبائل واستأصل شأفة القبائل المعارضة له [10].

---

(1) العيني: الموسوعة، ج60، ص638.

(2) ابن أبي الضيّاف (أحمد): إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تح: وزارة الشؤون الثقافية، تونس، 1999م، ص 160.

(3) قابس: أتت تسميتها من الاقتباس، وقابس مدينة بحرية عظيمة تقع شرقي تونس يجري فيها وادي يسقي بساتينها، تمتاز بجمال طبيعتها وتشتهر بتربية دودة القز للحصول على الحرير. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 328 – 329.

(4) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ج6، ص 405.

(5) مؤنس (حسين): تاريخ المغرب (دول المرابطين والموحدين والحفصيين)، دار العصر الحديث، بيروت، ج2، 1992م، ص 225.

(6) أقام إبراهيم أبو إسحاق لدى ملك غرناطة محمد بن الأحمر وقد أرسل المستنصر لملك غرناطة طالباً منه تسليم إبراهيم، لكن الثاني لم يستجب لمطالبه وبقي إبراهيم في غرناطة حتى توفى أخيه المستنصر سنة 675 هـ / 1276م حيث استلم من بعده ابنه يحيى الذي امتاز بسوء الخلق فقدم عمه إبراهيم إلى تونس وسانده أبناؤها واستلم السلطنة سنة 678هـ / 1279م. ابن خلدون: ج6، ص460.

(7) ابن خلدون: ج6، ص 402 – 403.

(8) أبو ديّاك (صالح): النظام المالي عند الحفصيين، مجلة دراسات تاريخية، العددان 21 – 22، دمشق، 1986م، ص 94 – 97.

(9) ابن خلدون: ج 6، ص 423.

(10) برنشفيك (روبار): تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي، تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، 1988م، ص 79 – 80.

إن الناظر للأوضاع السياسية عشية هجوم الحملة الفرنجية يلاحظ أن المستنصر في حالة نزاع مع أقاربه على السلطة، فضلاً عن الصراع مع القبائل وهذا كافٍ لتشجيع Louis IX لمهاجمة تونس ربما أن Louis IX توقع أنه سيحدث معه في تونس كما حدث في بلاد الشام إثر وصوله إليها سنة 648هـ / 1250م حيث راح كل من الأيوبيين والمماليك يعمل على استمالته إلى جانبهم [1]، ويحتمل توقّع أنه فيما إذا قدم إلى تونس فإنه سيلقى ترحيباً من القبائل التونسية المعارضة التي تمثلت بتمرد أبناء الأسرة الحاكمة وثورات القبائل مما يسهّل عليه الاستيلاء على تونس.

ث- الرخاء الاقتصادي: امتلكت تونس موقعاً استراتيجيا على البحر المتوسط مما أدى لازدهارها اقتصادياً، حيث نشطت فيها الزراعة وخاصةً في عهد المستنصر الذي / ***اغترس فيها من كل فاكهة من أصناف التين والزيتون والرمان والنخيل والأعناب*** / [2] وغيرها من الأشجار والحبوب [3]، كما ازدهرت الصناعة فيها كصناعة الحرير والعطور والأخشاب والأواني المنزلية [4]، وأسهم المستنصر بتشجيع الصناعة / ***فبنى المصانع والهياكل العظيمة*** / [5] ونشطت الحركة التجارية وازدهرت الأسواق وتوافد التجّار إلى تونس من كل حدب وصوب [6]، ورافق ذلك التطور الاقتصادي ازدهار عمراني وثقافي وعاش أبناء تونس في حالة من الرخاء ورغد العيش [7]، وهذا الازدهار الاقتصادي لتونس جعل منها محطّ أنظار الطامعين أمثال Louis IX الذي قرّر توجيه حملته إلى تونس بدلاً من بيت المقدس.

ج- توتر علاقة المستنصر مع جنوه والبندقية: اقتصرت العلاقة التونسية مع أوربا على إقامة العلاقات التجارية حيث نشط التبادل التجاري بين تونس والجمهوريات الإيطالية مثل جنوه وبيزا والبندقية، وذكر اليونيني خبراً مفاده أن أبناء جنوه قد سكّوا نقوداً تونسية مزوّرة على غرار النقود التونسية [8]، وعندما علم المستنصر أمر بجمع الأموال الجنوية المزوّرة وسجن الجنويين الذين كانوا وراء تزوير النقود مما أدى لسوء العلاقة التجارية بين جنوه وتونس [9]، كما توترت العلاقة بين Charles Anju ملك الصقليتين والمستنصر بسبب إيواء الثاني لبعض الصقليين المتمردين على Charles Anju [10]، ويُلاحظ أن العلاقة بين المستنصر وأوربا كان يشوبها التوتر بسبب خلافه مع Charles Anju والجنوية.

يمكننا القول أن أوضاع تونس عشيّة قدوم الحملة الفرنجية كانت مشجّعة للغزو الفرنجي لتونس حيث ظهرت الكثير من حركات التمرّد ضد المستنصر لكن بذكائه قضى على تلك الحركات في مهدها ربما أن Louis IX توقع قيام حركات تمرد جديدة في تونس تسانده في حملته [11]، كما لا يمكن إغفال حالة الغنى التي عاشتها تونس هذا ما أنعش آمال الفرنسيين الطامعين في زيادة ثرواتهم وكل ما تقدّم قد شجّع Louis IX على مهاجمة تونس [12].

---

(1) جوانفيل: الموسوعة، ج35، ص 172 – 190.

(2) ابن خلدون: ج6، ص 404.

(3) ابن أبي الضيّاف: ص 161.

(4) ابن خلدون: ج6، ص 403 – 405.

(5) ابن أبي الضيّاق: ص 161.

(6) الفاسي: ص 74 – 75.

(7) ابن شدّاد (عز الدين محمد): تاريخ الملك الظاهر، دار فرانز ستاينر، فيسبادن، 1983م، ص 188 – 189.

(8) استخدمت تونس في عهد المستنصر الدينار الذهبي والدرهم الفضي والفلوس النحاسية. أبو ديّاك: ص 100.

(9) اليونيني (موسى): ذيل مرآة الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، مج1، 1992م، ص 454 – 455.

(10) المطوي: ص 199.

(11) ابن خلدون: ج6، ص 400 – 424.

(12) العيني: الموسوعة، ج 6، ص 638.

مسير الحملة الفرنجية وموقف المستنصر الحفصي منها:

تجمع الفرنجيون في ميناءي إيج مورتز ومرسيليا الفرنسيين وانتظروا ساعة الرحيل، بينما سارع Louis IX للاتفاق مع جنوه لنقل الحملة ثم عهد بالحكم في فرنسا إلى رئيس دير القديس دِنيس متّى فاندوم والكونت سيمون كونت نيزل ثم ودّع أهله الوداع الأخير وحمل الصليب وانطلق إلى إيج مورتز حيث وصلت السفن الجنوية التي كانت قد تأخرت عن الموعد المحدد لها، ثم حمّلوا أمتعتهم ومستلزماتهم واستقلوا السفن وأبحرت الحملة نحو جزيرة سردينيا سنة 669هـ / 1270م [1].

أبحرت الحملة الفرنجية ووصلت إلى مرفأ كالياري في جزيرة سردينيا سنة 669هـ / 1270م [2]، لكن لماذا انطلقت الحملة إلى سردينيا؟

إن انطلاق الحملة نحو سردينيا دليل على أن Louis IX قد قرر مسبقاً المسير إلى تونس وإلا لما اتجه إلى سردينيا القريبة من تونس وأيضاً المستنصر الحفصي كان على علم بأن Louis IX سيهاجم تونس قبل مسير الحملة من فرنسا حيث أرسل سفارة تونسية إلى Louis IX وصلت إلى فرنسا وحملت / ***ثمانين ألف دينار*** / [3] حيث سلمت السفارة ذلك المبلغ إلى Louis IX لاسترضائه مقابل ألا يهاجم تونس فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أن غزوه لأراضيهم سيتمّ لا محالة [4].

يتضح الهدف من اجتماع كالياري هو وضع خطة حربية لاقتحام تونس، هذا وقد اعتذر Charles Anju من أخيه Louis IX عن متابعة المسير معه إلى تونس، حيث أراد العودة إلى مملكته بسبب حدوث اضطرابات داخلية فيها أجبرته على الرجوع إليها ووعد Louis IX أنه سيتبعه لاحقاً كما وعده أيضاً Edwar Henry الثالث باللحاق به [5] ثم استأنفت الحملة الفرنجية مسيرها من سردينيا إلى تونس ووصلت الشاطئ الإفريقي سنة 669هـ / 1270م[6].

توجّب على المستنصر الحفصي تحصين المواقع الهامة في تونس وبخاصة الشواطئ كما أمر بتقوية الاستحكامات العسكرية للمناطق التي يُخشى مهاجمتها من قبل الحملة الفرنجية [7] كما قام بتخزين الحبوب تجنباً لأزمة غذائية قد تحدث في تونس [8] وسعى لشراء الأسلحة اللازمة [9] ولم يكتفِ المستنصر بإعداد العدّة بل أرسل يستنفر المسلمين داخل تونس وخارجها وحضّهم على الجهاد مستشهداً بالآية القرآنية الكريمة: {انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَموَالِكُم وَأَنفُسِكُم فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُم خَيرٌ لَكُم إِن كُنتُم تَعلَمُونَ} [10]، فقدمت إليه الجيوش والمتطوعون من شتّى النواحي.[11]

---

(1) حسين: ص 283 – 285.

(2) عامر (سامية): الصليبيون في شمال إفريقيا (حملة Louis IX على تونس)، دار عين، مصر، 2002م، ص 107 –108.

(3) ابن خلدون: ج6، ص 426.

(4) ابن خلدون: ج6، ص 426.

(5) عامر: ص 109.

(6) ابن أبي دينار (محمد): المؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس، الدار التونسية، تونس، ط1، 1869م، ص 128.

(7) ابن خلدون: ج6، ص 246؛ سرهنك (إسماعيل): حقائق الأخبار عن دول البحار، المطبعة الأميرية، بولاق، ط1، ج1، 1894م، ص 414.

(8) ابن خلدون: ج6، ص 246.

(9) الصفدي: ج5، ص203.

(10) القرآن الكريم: سورة التوبة، الآية رقم 42.

(11) ابن خلدون: ج6، ص 248

أرسل المستنصر الحفصي سفارة إلى الظاهر بيبرس وقد حملت السفارة هدية كانت عبارة عن عدد من الخيول العربية الأصيلة ثم أرسل بيبرس للمستنصر مشجعاً إيّاه على الصمود بوجه الفرنجيين [1]، كما أعدّ جيشاً مملوكياً لإرساله إلى تونس فيما إذا اقتضت الضرورة [2].

عقد المستنصر اجتماعاً حربياً لوضع خطّةٍ من أجل مواجهة الحملة الفرنجية وحضر الاجتماع مستشاروه وكبار رجال دولته وشيوخ القبائل وشخصيات أخرى قدِمت من الأندلس والمغرب العربي [3]، نتيجة لذلك ما إن وصلت أنباء مسير الحملة الفرنجية من سردينيا نحو تونس [4] حتى أعلن المستنصر الحفصي الجهاد فوصلته النجدات من كل فج عميق، وآزره المشرق والمغرب العربي الإسلامي وسارع أبناء تونس خفافاً وثقالاً واستعدوا جميعاً للمواجهة المرتقبة [5].

سقوط قرطاجة في أيدي الفرنجيين:

وصلت الأساطيل الفرنجية شواطئ قرطاجة [6] سنة 669هـ / 1270م ونزلت على شواطئها وقد توغل الفرنجيون في قرطاجة وهاجموا حصن المعلقة واستولوا عليه وغدت قرطاجة برمّتها تحت سيادة Louis IX.

أحاط المسلمون بأسوار قرطاجة المتداعية ويُلاحَظ أن المستنصر قد حصّن الواجهة البحرية لقرطاجة، أما الواجهة الداخلية لها فبقيت تحصيناتها القديمة كما هي، وأمر Louis IX بإصلاح قرطاجة تفادياً لهجمات المقاتلين، لقد أدرك المستنصر أنه لم يأخذ بالأسباب الوقائية كاملةً وتمنّى لو خُرِّبت قرطاجة لأن الفرنجيين قد تحصّنوا بداخلها ورمَوا المسلمين من خلف أسوارهم، كما أيقن المستنصر بأن خطّته التي قامت على السماح للفرنجيين بالنزول إلى البرّ كانت خطّةً ضعيفةً لأن الفرنجيين تغلّبوا على المسلمين وتحصّنوا في المدينة وأصبح القضاء عليهم أمراً صعباً ومن الأفضل لو أنه فكّر في خوض معركة حاسمة معهم قبل أن يطؤوا شواطئ تونس [7].

انتظر الفرنجيون داخل قرطاجة ريثما يصل Charles Anju من أجل متابعة الزحف على بقية أنحاء تونس [8]، لكنّ شارل اعتذر عن التأخر في المسير إلى تونس بسبب المشاكل الداخلية في مملكته وقد أرهق الحصار على الفرنجيين وشارل يتقاعس عن اللحاق بهم [9] في الوقت الذي خرج فيه / ***الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد*** / [10] حيث اشتدّت هجمات المسلمين على الفرنجيين ومن أشدّها ذلك الهجوم عبر البحيرة المجاورة لقرطاجة الذي كبّد الفرنجيين خسائر فادحة، وقد نبّه ذلك الهجوم الفرنجيين لخطورة تلك الناحية فقاموا / ***بحراسة البحيرة وبعثوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق إليهم*** / [11]

---

(1) عامر: ص 135 – 136.

(2) ابن عبد الظاهر (محي الدين): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976م، ص 273 – 274.

(3) اليونيني: مج1، ص 455.

(4) ابن خلدون: ج6، ص 247.

(5) ابن خلدون: ج6، ص 248.

(6) قرطاجة: مدينة قديمة وميناء على الشاطئ التونسي تعد من أجمل المدن الإفريقية وأتقنها بناءً وتمتاز بكثرة خيراتها وخصوبة تربتها وجمال طبيعتها فضلاً عن روعة أبنيتها ومن أهم عمرانها الأسوار القديمة التي أحاطت بها وأعمدتها الرخامية الملونة والمزينة بالرسوم ودار المسرح وبقيت قرطاجة خراباً منذ أن دمرها الرومان حتى فتحها موسى بن نصير 95هـ / 702م حيث تم إعمار جزء يسير منها عُرِف بالمعلقة وقد استقر بها بنو زياد. الحموي: ج 4، ص 367 – 368.

(7) ابن خلدون: ج6، ص 428.

(8) الحريري سيد (علي): الأخبار السنية في الحروب الصليبية، المطبعة العمومية، مصر، ط1، 1899م، ص270.

(9) برنشفيك: ج1، ص 90.

(10) ابن خلدون: ج6، ص 428.

(11) ابن خلدون: ج6، ص 428.

وهكذا أخفقت خطّة المستنصر في حصر الحملة الفرنجية على الشاطئ التونسي والقضاء عليها وكان من الأفضل تدميرها وإغراقها قبل أن تطأ شواطئ تونس [1] لأنها توغلت في قرطاجة وثبّتوا أقدامهم فيها وزادت من استحكاماتها العسكرية فيها، فأصبحت منيعةً أمام هجمات المسلمين وأصبح الاستيلاء على تونس أمراً محتملاً [2].

تفشّي الأمراض في صفوف الجيش الفرنجي:

أحكم المسلمون حصار قرطاجة واستمرت المواجهات بين المسلمين والفرنجيين وخشي المسلمون من وصول Charles Anju على رأس قوة جديدة مما يُعَرّض تونس برمّتها للخطر لكن انتشار الأمراض والأوبئة بين أفراد الجيش الفرنجي أدّت لارتفاع معنويات المسلمين وازدادوا ثباتاً في مواجهة أعدائهم [3].

شدّد المسلمون الحصار البري والبحري على قرطاجة فانقطعت الإمدادات عن الفرنجيين داخلها فاعتمدوا في غذائهم على اللحوم المجفّفة المملّحة مما انعكس سلباً على أوضاعهم الصحيّة نتيجةً لسوء التغذية فضلاً عن نقص المياه لديهم [4].

ولا يخفى علينا المناخ البحري حيث الرطوبة العالية التي سادت المعسكر الفرنجي فضلاً عن ارتفاع درجة الحرارة وبخاصة في شهر تموز مما أدى لتغيّر المناخ على الفرنجيين المعتادين على مناخ فرنسا المعتدل ربما زاد ذلك في سوء أحوالهم الصحية [5].

كل ما تقدّم أدّى لتفشّي الأمراض بين الجنود الفرنجيين وأودى بحياة الكثير منهم مثل يوحنا الحزين بن Louis IX وعدد من كبار رجال الحملة الفرنجية، وهكذا وقف الفرنجيون والمسلمون وجهاً لوجه ولم يتغلّب أحدهم على الآخر ولم تحدث معركة حاسمة بين الطرفين نتيجة الأمراض والأوبئة التي حلّت بالجيش الفرنجي حتى أنّ Louis IX بدت عليه علامات الضعف والمرض [6].

(1) اليونيني: مج1، ص 455.

(2) ابن خلدون: ج6، ص 428.

(3) اليونيني: مج1، 455 – 456.

(4) عامر: ص 154 – 161.

(5) عامر: ص 162.

(6) دوبوا (بيير): استرداد الارض المقدّسة، الموسوعة الشامية، تح وتر: سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، ج36، 1999م، ص 112.

وفاة لويس التاسع وتوقيع معاهدة الصلح بين المستنصر والفرنجيين:

استبدّ الوباء بالجيش الفرنجي وراح ضحيته الكثير ومنهم يوحنا الحزين فلذة كبد Louis IX فحزن على فقدانه واعتكف في خيمته لكن ما لبث أن وقع Louis IX نفسه في المرض فلزم فراشه وشعر أن منيّته قد اقتربت [1].

مهما تعدّدت الروايات حول المرض أو العلّة التي أصابت Louis IX حيث ذكرت بعضها إصابته بسهم مسموم أو بسهم في معركة وأخرى حدّدت أنه أُصيب بوباء الحمى التيفية [2]، وعندما شعر Louis IX أنه يحتضر توجّه لطلب الشفاعة والعون من القديس دِنيس الذي اعتاد أن يستغيث به أثناء الشدائد والمحن، حيث لم يمهله المرض كثيراً فلفظ أنفاسه الأخيرة وفارق الحياة سنة 669هـ / 1270م.

بعد وفاة Louis IX أدّى كبار رجال الحملة الفرنجية الثامنة في تونس يمين الولاء والطاعة لملكهم الجديد فيليب حيث تمّ تعيينه ملكاً على فرنسا سنة 669 / 674هـ – 1270 / 1275م [4].

يمكننا القول بأن Louis IX قد حفر قبره بيده وقادته أطماعه إلى حتفه ولم يحقق ما كان يرنو إليه من مدّ النفوذ الفرنسي على إفريقيا وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، لكن Louis IX أخطأ الهدف الذي كان ينشده عندما أراد أن يؤسس صرحاً يخلّد من خلاله ذكراه، ففشلت الحملة ولم تحقق أهدافها الاستعمارية.

فقد الفرنجيون ملكهم Louis IX وفجأةً وصل Charles Anju ملك الصقليتين إلى شواطئ تونس لإنقاذهم لكنه تأخر وفات الأوان ووصل أيضاً Edwar Henry الثالث ملك إنكلترا الذي وعد Louis IX لمساندته في حملته على تونس، ولم يتغلب أي طرف على الآخر لأن الفرنجيين تحصنوا داخل قرطاجة بينما فرض المسلمون عليهم حصاراً شديداً فظهرت بوادر للصلح بينهما ويرجّح أن الفرنجيين هم من بادر بطلب الصلح لأن أوضاع المسلمين كانت أفضل من أوضاعهم وقد رغب الطرفان بالصلح وإنهاء حالة الحرب بينهم فعلى الجانب الفرنجي يُلاحظ ما يلي[5]:

(1) دوبوا: الموسوعة، ج36، ص112.

(2) جوانفيل: الموسوعة، ج35، ص 262.

(3) جوانفيل: الموسوعة، ج35، ص 267.

(4) مونرود: مج2، ص361.

(5) فابري: الموسوعة، ج38، ص 1173

1- عانى الفرنجيون من شدّة الحصار البري والبحري وهذا ما أدى لسوء أوضاعهم وإصابتهم بسوء التغذية.

2- انتشار الوباء في صفوف الجيش الفرنجي.

3- إنّ وفاة Louis IX أدت لإصابة الجيش الفرنجي بالإحباط.

4- تعرُّض الفرنجيون لضربات موجعة من قبل المسلمين [1].

أما ظروف المسلمين التي أجبرتهم على الصلح فهي:

1- لم يكن المستنصر رجل حرب بمعنى الكلمة ولم يمتلك الحماس في شنّ هجوم كاسح على الفرنجيين يقضّ مضجعهم.

2- خشي المسلمون من كسر الفرنجيين للحصار ومهاجمة تونس والاستيلاء عليها وبخاصة مجيء النجدات من قبل Charles Anju و Edwar Henry الثالث [2].

3- كان معظم المتطوعين من البدو الذي شاركوا في مواجهة الحملة الفرنجية وقد اضطروا مع اقتراب فصل الشتاء للعودة إلى ديارهم لتأمين الأعلاف اللازمة لمواشيهم [3].

أما فيما يخص معاهدة الصلح فقد تضمّنت النقاط الآتية:

1- يدفع المستنصر غرامة مالية قدرها خمسمئة وخمسة وعشرون ألف ليرة ذهبية فرنسية وذلك تعويضاً للفرنجيين عن نفقات حملتهم ويشترط أن تدفع أقساطاً.

2- يتوجّب على المستنصر دفع مبلغ مالي بشكل سنوي لCharles Anju ملك الصقليتين [4] مقابل تعهّد الثاني بحماية شواطئ تونس.

3- السماح للمبشرين المسيحيين بنشر الديانة المسيحية في تونس والاعتراف بحقهم في بناء كنائسهم وأديرتهم.[5]

4- يتم إطلاق سراح الأسرى المسلمين والفرنجيين.[6]

5- يتعهد الفرنجيون الانسحاب من قرطاجة من غير تعرّض لجهة من جهات المسلمين.

6- مدّة المعاهدة خمسة عشر عاماً.[7]

وهكذا تمّ توقيع الصلح بين المستنصر والفرنجيين وعقب ذلك بدأ الفرنجيون بالانسحاب من قرطاجة وكانت مدّة إقامتهم فيها أربعة أشهر وعشرة أيام.

وحرصاً من المستنصر على عدم حدوث ما يعكّر صفو الأمن بينه وبين الفرنجيين في تلك المرحلة أرسل فرقاً من قواته لحمايتهم أثناء الانسحاب حيث انسحب الجيش الفرنجي إلى صقلية وفي الطريق مات عدد كبير منهم وفشلت الحملة في تحقيق أهدافها.

---

(1) ابن خلدون: ج6، ص428 – 429.

(2) اليونيني: مج1، ص456.

(3) ابن خلدون: ج6، ص429.

(4) اليونيني: مج1، ص456.

(5) برنشفيك: ج1، ص93.

(6) عامر: ص 186.

(7) ابن أبي دينار: ص129.

نستنتج مما سبق أن معاهدة الصلح التي عقدها المستنصر مع الفرنجيين كان صلحاً جائراً لعدم رغبته بمتابعة القتال وقد جاءت المعاهدة لصالح الفرنجيين نتيجة تخاذل المستنصر في مواجهة الفرنجيين بشكل مباشر.

خاتمة البحث:

وهكذا نجد أنّ حملة Louis IX على تونس قد فشلت ولم تحقق أهدافها، على الرغم من التحالفات والنجدات التي وصلت إليه، حيث أن الفرنجيين لم يستطيعوا السيطرة على تونس بشكل مباشر بسبب المقاومة الشديدة التي فاجأت Louis IX وقواته فضلاً عن وصول الدعم العسكري من قبل الظاهر بيبرس من بلاد الشام وتوحّد أبناء المغرب العربي والأندلس إلى جانب التونسيين، فقد فشل المسعى الفرنجي للوصول إلى بيت المقدس رغم الدعم الأوربي لLouis IX، وقد أصابت الأوبئة والأمراض جنود الحملة الفرنجية حتى أنّ لويس لقي حتفه فيها، وانحسرت قوة الحملة وتأخر وصول المؤن والإمدادات إليها.

كل ما تقدم ساعد أبناء تونس على التصدّي للحملة الفرنجية عليها ونظراً للمدة الزمنية القصيرة لم تحسم المعركة لطرفٍ على حساب الطرف الآخر، مما أدى إلى عقد الصلح بين الطرفين ولذلك انسحبت الحملة من السواحل التونسية وانتهت قصة القديس لويس وأحلامه التوسعية على روابي تونس.

الاستنتاجات والتوصيات

Louis IX بما خطط له من قيامه بالحملة الفرنجية السابعة أولا (647هـ –1249م) قد فشل في تحقيق أهدافه فيها جعله يفكر ملياً بالقيام بحملة فرنجية جديدة تتجه إلى تونس مستخدما بوصلته السياسية في هذه المرة باتجاه افريقية ليجعل منها نقطة انطلاق نحو بلاد الشام ومصر إلا أن حظه لم يحالفه فقد تبخرت أحلامه في هذه الحملة على الرغم من التجهيز لها من خلال اتصاله مع الجنويين.

مهما اختلفت أبعاد الحملة ودوافعها ما بين سياسيةٍ واقتصاديةٍ ودينيةٍ واجتماعية، إلا أنّ Louis IX لم يحقق أهدافه فيها، وقد بدا ذلك جلياً عند وقوعه في الأسر خلال الحملة الفرنجية السابعة، إلا أن إصراره على تنفيذ مخططاته جعله يقود الحملة ثانية ولكن الوجهة إلى تونس، وما إن حطت سفن الأسطول الفرنجي حتى حطمتها عواصف هوجاء أرعبت الملك وجنوده هذا الإنذار الأول، أما العاقبة الأخرى فهي الأمراض والأوبئة والمجاعات التي قصمت جيش Louis IX فوقعت بين نارين الأمراض والمجاعات، والمقاومة الإسلامية التي قادها المستنصر وجنوده حتى استطاعوا رد الحملة وإجبار الملك شارل على توقيع الصلح، فبموت Louis IX انحسرت الحركة الفرنجية وتبددت أحلام Louis IX في الخيال..

وَثيقَة الصلْح بَيْن المستَنصر الحفْصي وَالصليْبيين

(1) حسين: ص 709.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم تسليماً.

هذا ما اتفقوا عليه وعقدوه على يد الشيخ الأجل الأكرم أبو زيان محمد بن عبد القوي : الملك الأجل المعظم المختار فليب بنعمة الله تعالى ملك افرنسة ابن الملك الأجل الأقدس لويس، والملك الأجل المعظم جارل بنعمة الله تعالى ملك صقلية، والملك الأجل المعظم تيبلط ملك نفاره، أمدهم الله تعالى لتوفيقه، والخليفة الإمام المؤيد المنصور أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن الأمراء الراشدين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته ورضي عنهم وأبقى للمسلمين بركتهم، على شروط يأتي ذكرها وهي : أن يكون جميع من يتردد من المسلمين الذين من بلاد أمير المؤمنين ومما هو تحت طاعته ومما ينضاف إلى طاعته إلى بلد من بلاد الملوك المذكورين والأقماط والزعماء، أو إلى جزيرة من الجزاير المعروفة بهم، أو ما هو تحت طاعتهم أو ما ينضاف إلى طاعتهم، في أمان الله تعالى لا يعترض أحد منهم في نفس ولا مال كثير أو قليل وأن يكفوا عادية كل من يخرج من بلادهم ومما هو تحت طاعتهم، وما ينضاف إلى طاعتهم من مسطحات وقطع وشياطي وغيرها من ساير الأجفان كبيرها أو صغيرها، لضرر أو تعد على شيء من بلاد أمير المؤمنين ومما ينضاف إلى طاعته وما بينهما من جميع البلاد والجزاير والسواحل والمراسي، أو على أحد من ساكنيها، فمتى أصيب أحد من المسلمين المذكورين في نفس أو مال قليل أو كثير فعليهم جبر ذلك على المسلمين ورده، سوا كان المسلمون واردين على البلاد المذكورة أو صادرين عنها، وعلى أنهم لا يمدون أحداً يريد ضرر بلد من بلاد أمير المؤمنين ولا ما ينضاف إليها ولا أحد من أهلها، وعلى أنه متى انكسر لأحد من المسلمين المذكورين جفن، أو جفن للنصارى وفيه أحد من المسلمين المذكورين في مرسى من مراسي بلادهم وفيما يكون تحت طاعتهم، فعلى كل واحد منهم حفظ ما يصل من ذلك إلى بر طاعتهم من المسلمين أو من أموالهم ورد جميع ذلك إلى المسلمين، وعلى أن يكون جميع من يحل من مراكب المسلمين والنصارى من غير البلاد المذكورة ومما ينضاف إلى طاعة المسلمين في مرسى من مراسي أمير المؤمنين في أمن مثل أمن أهل البلاد المذكورة ما داموا في المرسى المذكور أو مقلعين واردين أو

(1) حسين: ص710.

صادرين، وعلى أن يكون جميع من يصل من تجار أهل بلاد الملوك المذكورين، وجميع النصارى الذين هم أصدقاؤهم، في أمن الله تعالى في أنفسهم وأموالهم على المعهود المتعارف فيما لهم وعليهم من بيوعهم وأشريتهم، محفوظين في ترددهم وإقامتهم، ما داموا مقبلين على تجارتهم محافظين على ربوط هذا الصلح، ويكون لهم من الشروط مثل ما اشترط على الملوك المذكورين سوا حرف بحرف، وعلى أن يكون رهبان النصارى أو قسوسهم سكاناً في بلاد أمير المؤمنين، وهو يعطيهم موضعاً يعمرون فيه دياره وبيوت الصلاة، ومواضع لدفن موتاهم، والرهبان والقسوس المذكورين يعظون ويصلون مجهراً في كنايسهم، يخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معودون في بلدهم، وعلى أن جميع التجار الذين في بلد أمير المؤمنين من بلاد الملوك المذكورين وغيرها من النصارى يكونون على عوايدهم في جميع أمورهم، ويرد لهم كل شيء لهم عند الناس وعلى الناس، وعلى أن الملوك المذكورين لا يقبلوا في بلادهم من يكون عدواً لأمير المؤمنين ولا ينجدوا لمن يتحرك لضرر أو لتعد على شيء من بلاده، وعلى أن من حصل من الأسرى ببلد المسلمين أو بيد الملوك المذكورين وبقي حياً فيرد كل أسير إلى أهل دينه، وعلى أن يقلع الملوك المذكورين وجميع من إليهم وفي محلتهم من أهل طاعتهم ومن غيرهم من كل من تحرك بحركتهم أو وصل في صرختهم أو معونتهم أو يصل بعدهم مثل الملك إدوارد أو غيره كائناً من كان، ولا يبقى في بر المسلمين أحد إلا إن بقي لهم أثقال أو بعض ناس فيكونوا في موضع معين لهم من جهة أمير المؤمنين، ويكونوا محفوظين منه إلى حين رجوع المراكب إليهم، وعلى أن مدة انعقاد الصلح بين أمير المؤمنين والملوك المذكورين وغيرهم من الأقماط والزعماء إلى تمام خمسة عشر عاماً شمسية، أولها شهر نوفمبر المتصل بأكتوبر الموافق لشهر التاريخ، وعلى أن يعطي لهم مايتا ألف أوقية ذهباً وعشر آلاف أوقية، كل أوقية منها يقبض عنها من الفضة ما قدره خمسون درهماً من دراهمهم في الوزن والطيب، يعجل لهم منها نصف العدد محضراً، والنصف الثاني مقسط بين عامين شمسيين من تاريخه، نصف المقسط يقبض آخر كل عام من العامين المذكورين، والذين يبقون في بر أمير المؤمنين بعد سفر الملوك وأجنادهم على ما ذكرناه يكونون محفوظين من جهة أمير المؤمنين، وإن تعرض لهم عارض في أنفسهم وأموالهم فعلى أمير المؤمنين رد ذلك إليهم. والانبرور الأجل بادوين صاحب

(1)

حسين: ص711.

قسطنطينية والكمت الأجل ألفوس كمت طلوزة، والكمت الأجل كي كمت دافلندر، والكمت الأجل هري كمت لوسنبرك، وجميع من حضر من الأقماط والزعما والفرسان داخلون في ذلك كله ولازم لهم ذلك. شهد على جميع من ذكر في الأعلا المشهودين بما فيه بعد تقريرهم عليهم وفهمهم جميع ما نسب إلى كل واحد منهم بمحضر الجميع. وليعطي أمير المؤمنين على المال المتبقي ضماناً من تجار النصارى للملوك المذكورين وإن كل من يكون عدواً للملوك والأقماط المذكورين يصرف ويخرج من بلاد أمير المؤمنين ولا يعاد يقبل. وشهد أيضاً من حضر من القسوس والرهبان والأساقفة بجميع ذلك. وأمير المؤمنين أيده الله تعالى، وولده المبارك الأسعد، والشيخ الأجل أبو زيان بن عبد القوي، وعدوا على دينهم وأمانتهم لتمام ذلك، بتاريخ الخامس لربيع آخر عام تسعة وستين وستمائة. ويضاف إلى هذا العقد أن يودى إلى الملك الأجل جارل بنعمة الله ملك صقلية عن الخمسة أعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يودى للانبرور سوا، ويودى للملك الأجل المذكور من اليوم رجاء في كل عام ما كان يودى للانبرور مثنياً.

والحمد لله تعالى، شهد بانعقاد الصلح وصحته وثبوته عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفي، وعلي التميمي بن إبراهيم بن عمر، وأبو القسم بن أبي بكر التجيبي.

(1)

حسين: 712.

(1)

جوليان (شارل أندري): تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: محمد مزالي - البشير سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ج2، 1978م، ص 135.

خريطة حملة لويس

التاسع

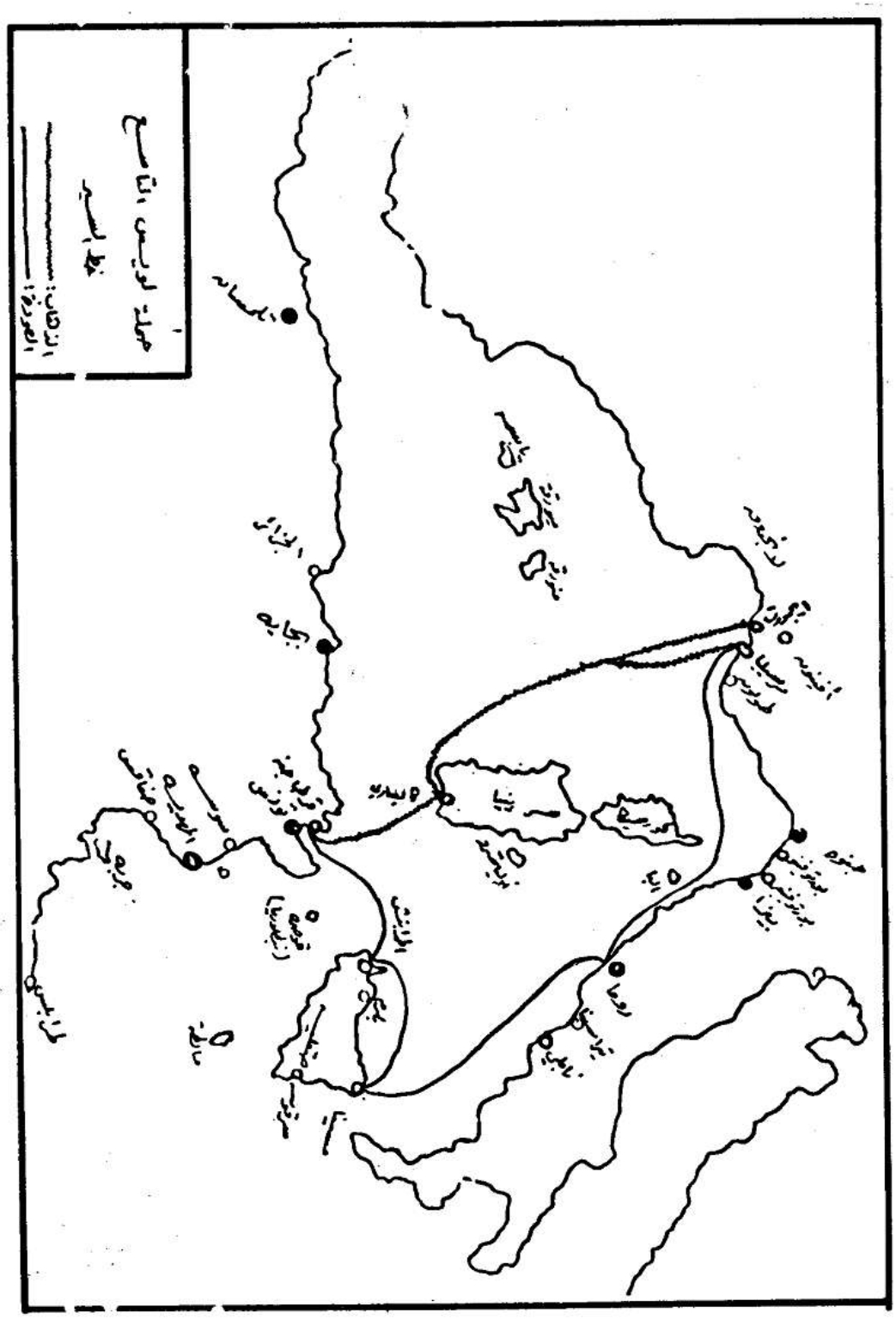

(1) حسين: ص 754.

قائمة المصادر:

(1) القرآن الكريم.
(2) جوانفيل، جين ت717هـ، حياة لويس حملاته ورحلاته على مصر والشام. الموسوعة الشامية، تح و تر: سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، ج 35، 1999م.
(3) الحريري سيد،علي، الأخبار السنية في الحروب الصليبية. المطبعة العمومية، مصر، ط1، 1899م.
(4) الحموي، ياقوت ت 626هـ، معجم البلدان. تح: فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، د . ت.
(5) ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن ت 808 هـ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. دار الشعب، القاهرة، ج 6، 1971م.
(6) دوبوا، بيير د. ت، استرداد الارض المقدّسة. الموسوعة الشامية، تح وتر: سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، ج36، 1999م.
(7) ابن أبي دينار، محمد د.ت، المؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس. الدار التونسية، تونس، ط1، 1869م.
(8) الزركشي، محمد ت 894هـ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. الدار التونسية، ط1، 1872م.
(9) سرهنك، إسماعيل د. ت، حقائق الأخبار عن دول البحار. المطبعة الأميرية، بولاق، ط1، ج1، 1894م.
(10) السرّاج، محمد ت 1149هـ، الحلل السندسية في الأخبار التونسية. تح: محمد الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، مج2، 1984م.
(11) ابن شدّاد، عز الدين محمد ت 632هـ، تاريخ الملك الظاهر. دار فرانز ستاينر، فيسبادن، 1983م.
(12) ابن الشمّاع، أبو العباس أحمد ت 869هـ، الأدلة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية. تح: الظاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، طرابلس الغرب، 1984م.
(13) الصفدي، خليل د. ت، الوافي بالوفيات. تح: محمد محمود وإبراهيم سليمان، دار فرانز شتاينر، فيسبادن، ط2، ج 5، 1970م.
(14) ابن أبي الضيّاف، أحمد ت 1291هـ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. تح: وزارة الشؤون الثقافية، تونس، 1999م.
(15) ابن عبد الظاهر، محي الدين د. ت، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر. تح: عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976م.
(16) العيني، بدر الدين ت 855هـ ، الموسوعة الشامية. تح و تر: سهيل زكّار، دمشق، ج 60 ، 2003م.
(17) فابري، فيلكس د. ت، جولات الراهب الدمينيكاني فيلكس فابري ورحلاته. الموسوعة الشامية، تح وتر: سهيل زكّار، دار الفكر، دمشق، ج38، 2003م.
(18) مقديش، محمود د. ت، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار. تح: علي زواوي ومحمود محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، مج1، 1988م.
(19) مونرود، مكسيموس د. ت، الحروب المقدّسة في المشرق المدعوّة حرب الصليب. تح: مكسيموس مظلوم، طباعة دير الرهبان الفرنسيسكان، أورشليم، 1865م.
(20) اليونيني، موسى د. ت، ذيل مرآة الزمان. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2، مج1، 1992م.

قائمة المراجع:

(1) برنشفيك، روبار، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي. تر: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، 1988م.

(2) جوليان، شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية. تر: محمد مزالي – البشير سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ج2، 1978م.

(3) حسين، ممدوح، الحروب الصليبية في شمال إفريقيا. دار عمّار، عمّان، ط1، 1998م.

(4) الدكيفي، خالد حسين، لويس التاسع والنشاط الفرنسي الصليبي من معركة المنصورة حتى وفاته 648 – 669هـ / 1250 – 1270م. رسالة أُعِدَّت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام بإشراف أ. د وفاء جوني، دمشق، 2011م.

(5) أبو ديّاك، صالح، النظام المالي عند الحفصيين. مجلة دراسات تاريخية، العددان 21 – 22، دمشق، 1986م.

(6) رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية. تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط2، ج3، 1980م.

(7) عاشور، سعيد، الحركة الفرنجية – صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، ج2، 1972م.

ـــــــ العصر المماليكي في مصر والشام. دار النهضة العربية، القاهرة، د . ت.

(8) عامر،سامية، الصليبيون في شمال إفريقيا (حملة Louis IX على تونس). دار عين، مصر، 2002م.

(9) الفاسي، الحسن، وصف إفريقيا. تر. محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983م.

(10) الكناني،مصطفى، حملة Louis IX الصليبية على تونس. دار المعارف، الإسكندرية، د . ت.

(11) المطوي، محمد، السلطنة الحفصية. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

(12) مؤنس، حسين، تاريخ المغرب (دول المرابطين والموحدين والحفصيين). دار العصر الحديث، بيروت، ج2، 1992م.

(13) يوسف، جوزيف نسيم، Louis IX في الشرق الأوسط . مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، ط 2، 1959م.